حملة العلم والتأسيس لمنهج الاستقطاب والانتشار

أ/ عمار غرايسة/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي

الملخص:

لقد كانت الحركة التي باشرها حملة العلم الخمسة انطلاقا من بلاد المغرب الاسلامي نقطة تحول في تكريس المذهب الاباضي بالمنطقة وتوسيع انتشاره مما كان له بارز الأثر في الوصول لمرحلة التأسيس لمرحلة التوجه من الدعوة الى بناء الدولة

abstract

The covement was initiated bay the hasid flag campain, derived from the countries of the islamic maghreb, nakhla nahoun in devoting pornography to the region and expanding a significant impact in reaching the stag of solace to the stage of al –nahuh from the the call to state building.

المقدمة:

جدلية العلاقة الخارجية: تناولت العديد من الكتابات الحديثة منها خاصة والمعاصرة واقع العلاقة المرتبطة بظهور وتشكُّل الحركة الاباضية ومدى الاتصال من عدمه بحركة الخوارج[1].

وواقع جُل تلك الكتابات يصب في اعتبار ان الاباضية ليسُوا من الخوارج في شيء. واتَّجهت الكتابة منحى صار وكأنَّه من قبيل نفي الشيء لإثباته.

إننا لو نظرنا إلى الأمور من حيث واقعها الحدثي، لوجدنا أن أمر الخروج الذي حدث زمن الإمام علي، إنما كان في ابتداءه موقفا سياسيا للتعبير عن وجهة نظر محددة إزاء ما كان قد جرى وقتذاك من حالة الاضطراب السياسي المتصل بواقع ما كان من خلاف حول مسألة الخلافة التي أعقبت مقتل الخليفة عثمان بن عفان. وهي تفرض ضرورة التعامل معها بهذا المنطق.

من جهة ثانية، فان مسار الحركة الخارجية لم يبق على ذات المنحى من حيث المواقف والأفكار وكذا السياسات المنتهَجَة. إذ غالبا ما أُشير إلى حالة من التباين التي تصل في بعض الحالات إلى مستوى التنافر والتضاد. ما أوجد بذلك حالة من التمايز داخل البيت الخارجي نفسه. ما كان يعني ضرورة عدم التعامل معه كوحدة مشتركة.

هذين أمرين أستطيع من وجهة نظري الشخصية، أن أرى من خلالهما إشكالية التجاوز في حق الحركة الاباضية والتي غالبا ما تم الاعتداء عليها بالرغم مما قد عرفت به في عموم مسارها من سماحة واعتدال.

السؤال الذي سيطرح نفسه هو: هل نحن لا نزال إلى اليوم بحاجة إلى الاستمرار في البحث في نشأة الحركة الاباضية وأصولها التاريخية.

إننا في الوقت الذي نرى ونسمع بالإرادة الساعية إلى البحث عن سبل التوافق بين الحضارات وبين الديانات، أليس الأجدر بنا والأحق والأليق، أن لو نؤسس فعليا لمرحلة من التقارب والتوافق والاندماج المذهبي في ظل القواسم المشتركة.

ألم تكن الحركة الاباضية في مسارها التاريخي بعيدة كل البعد عن كل ما قد يعيبها من التطرف أو الغلو أو الشطط. وهي التي غالبا ما عرف على أنها الأكثر قربا من المذهب السني الذي لا أود القول به إلا من باب التمييز الواقعي، على اعتبار أن الحركة الاباضية انما هي في إنبنت في توجّهاتها وتحددت منطلقاتها على مشارب سنيَّة فيكون بذلك حق القول الإقرار بأنها من المنابع السنيَّة وليس لمجرد أنها الأقرب اليها. وكل من يكون قادرا على التجرد من الذات واصطحاب الموضوعية يدرك فضل أولئك الرجال الاجلاء الذين كانوا من جمهور التابعين الفضلاء الذين عايشوا الصحابة الكرماء ويعرف حقيقة المذهب الاباضي من خلالهم.

ولعلي في هذا المقال استطيب الحديث عن جانب مهم من أسباب التسمية المتعلقة بنسبة الاباضية الى علمها عبد الله ابن اباض (ت 86هـ/705م)[2] وليس لأس مذهبها جابر بن زيد(ت 93هـ/711م)[3].

وأرى أن الموقف المرواني كان وراء الوصول إلى تحقيق النجاح في الحرمان من شرف اظهار أن البحر الجامع أبو الشعثاء والنجم الساطع في سماء المعرفة والذي كان له مع عدد من رموز جمهور الصحابة التقاء هو من اليه نسبت هاته الحركة وذلك حتى لا تنساق اليها عامة الناس ويعظم شأنها.

ولا غرو ان الإرادة السياسية الأموية كان لها فعلها في التقزيم الذي تعاملت من خلاله مع هاته الفئة الظاهرة على الحق.

المدرسة الجابرية: إن حملة العلم يمكن أن ينظر إليهم باعتبارهم أوَّل بعثة علمية أُسِّسَت في بعض جوانبها للتواصل الحضاري بين جناحي العالم الإسلامي. وهي وإن كانت قد تمت في أيام الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة[4]، إلا أن الأساس

الذي قد وضعه الإمام أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي العماني هو الذي مثل القاعدة التي قامت عليها الجهود العُبيدية في ظل الاستخلاف في الامامة.

لقد مثَّل حسب وجهة نظري مقتل أبي بلال مرداس بن أدية التميمي عام 61 هـ/680م نقطة تحوّل في مسار الحركة الاباضية وبركة عليها في ظل ما تحقَّق معه من انقسام نهائي ميَّز الاباضية عن غيرهم ممن كانوا يَنظرون إليهم كجزء منهم.

وإبراز حقيقة ما قامت عليه من اعتدال جسد حقيقة الوسطية التي قام عليها جوهر الإسلام.

مثل الامام جابر وتد الحركة الاباضية لما كان يمتلكه من قدرات ومواهب وما فرضته عليه حتى الظروف القائمة حينها، فكان الإمام الحقيقي المنظر الموجه وصاحب الزعامة الروحية. وهذا ما يتجلى من خلال الحرص على عدم الظهور الصورة العلنية، وهو موقف متناسق مع ما أشرت اليه سلفا من إرادة أموية. فقد استحسن على ما يبدو الاباضية ذلك وتقبَّلوا إخفاء امامهم الحقيقي حفاظا على سلامته من البطش والتنكيل الأموي وتأمينا في ذات الوقت لاستمراره كمنبع فكري يمد الحركة بالحيوية والنشاط. وهو ما يُبرز لنا تقبُّلهم نسبة حركتهم لابن اباض التميمي الذي كانت قبيلته من كبرى القبائل البصرية التي كان لها على ما يبدو من حضورها السياسي والفكري. وقد يفيد أنه نُظر اليها كعامل حماية وأمان من كل كيد.

كما يبدو أن مبدأ التُقية كان حاضرا، وأن العمل به نُظر إليه كضرورة سياسية.

ولا يبدو مثل هذا السلوك كان فريدا لدى الاباضية، حيث نجدهم قد أعادوا العمل به زمن أبي عبيدة الذي أناط بأبي مودود حاجب الطائي مسؤولية تسيير المهام المالية والعسكرية وإدارة شؤون الدعوة خارج البصرة حينها[5] .

وتؤكّد لنا العديد من النقولات الحقيقة القائمة على اعتبار أن الإمام جابر هو الإمام الحقيقي الذي ترى فيه أُسُّ المذهب الذي لابد من المحافظة عليه وحجبه عن الأنظار لضمان سلامته واستمراره في التوجيه والإرشاد ونشر مبادئ المذهب خاصة في ظل الإرادة الاموية القائمة حينها على رفض المذهب لما كان يمثِّله من عدالة يدعو إليه. فهذا القرشي ينقل عنه حاجيات أن أئمة المسلمين: " لم يكونوا يخرجون إلا بأمر إمامهم في دينهم جابر بن زيد العماني رحمه الله ويحبون ستره عن الحرب، لئلا تموت دعوتهم وليكون رداءا لهم"[6]

كما أشار من جهته الشماخي بعد أن أوضح مكانة عبد الله بن اباض وما كان يتمتع به من قدرة على المناظرة والمقارعة جعلته واجهة المذهب، وأشار الى فضل ما كان قد حازه الإمام جابر الذي قال عنه أنه " الامام القائد والوسيلة الراشد، أس المذهب وحاميه، مرجع الفضل في تدوينه وتشييد مبانيه"[7]

لقد كان الامام جابر البحر الزاخر فقيه البصرة (الذهبي) المؤسس الحقيقي للمذهب الذي سيعرف تحوّلات معتبرة على يد خلَفه الأمام أبا عبيدة.

إمامة أبا عبيدة: لم يكن الجهد الذي أداه أبا عبيدة إلا تكملة لجهد سابقه، فكان تراكم ذلك عاملا مهما في ضمان استمرار المذهب واتساع انتشاره.

اذ استفاد أبا عبيدة الإمام من الإرث الذي تركه الإمام المؤسس جابر بن زيد، وكأنِّي به المؤسِّس الحقيقي لمرحلة أبا عبيدة، خاصة ما كان قد عرف به من

مقارعته للحجاج في البصرة وحتى بعد نفيه لعمال واستمراره للتأسيس في المذهب، وكان في هذا الجانب قد حقق نجاحا باهرا في استمالة المهالبة خاصة بعد توتر علاقتهم بالخلافة وسوء معاملة الحجاج لهم، فاتخذ منهم مصدر قوة ودراع أمان للحركة.

تولى أبا عبيدة الإمامة في ظل أجواء أقل ما يمكن أن توصف به، أنها كانت مواتية إلى حد بعيد، شكلت في بعض جوانبها أحد أهم عوامل النجاح التي يمكن إضافتها لرصيد الحركة. يمكن إجمال أبرزها في النقاط التالية:

–انتقال الامام جابر بن زيد الأزدي الى الرفيق الأعلى، وتوليه الامامة خلفا له.

– حدوث تحول في الموقف العباسي بعد وفاة الحجاج (عام 95هـ/ 713م) ماكان يمثِّله من بطش وملاحقة لمن كان يرى فيهم المعارضة للسلطة القائمة، وتحرر الاباضية بذلك من المراقبة المسلطة على تحركاتهم ما يعني أنهم قد وجدوا مناخا ملائما ساعدهم على التعبير بحرية عن المبادئ التي كانوا يسعون لنشرها بين الناس.

– بداية حكم الخليفة سليمان بن عبد الملك (96– 99 هـ/ 715–717م) وما تميَّز به من حسن العلاقة مع المهالبة الذين سبق وأن أشرنا إلى أنهم قد انخرطوا في إطار الدعوة منذ أيام الإمام جابر، وشكَّلوا بذلك جانبا من الدعم المعنوي الذي أعطى دفعا كبيرا لإنجاح عملية توسُّع انتشار المذهب الإباضي.

وفي ذات السياق يمكن أن نُسجِّل أن ولاية يزيد بن المهلب (53 – 102هـ / 673 – 720م) العراق إلى جانب خراسان ستشكِّل بحكم ما هو معروف عن

موقف المهالبة عاملا مهما في تهيئة الأجواء المناسبة للقدرة على التحرك بصورة أكثر فاعلية.

كما لا يبدو شخص الخليفة عمر بن عبد العزيز حين تولّيه الخلافة (99–101هـ/717–720م) برغم ما أقدم عليه تجاه آل المهلب خاصة تنحيته يزيد وابعاده واخوته عن دائرة صنع القرار قد أثَّر سلبا على الموقف الإباضي، لما كان قد عُلِّق عليه من قِبل الأيِّمَّة والمشايخ من آمال بحكم ما عُرف به من تسامح وعدل وانصاف. بل إنهم حسب ما يشار إليه فإنهم قد أرسلوا وفدا عنهم ترأسه جعفر بن السمَّاك (حي بين 99 – 101هـ/ 717 – 719م) الذي يكون قد تولَّى بكل حرية وأمان عرض آرائهم وبيان وجهة نظرهم. والظاهر أن هذا الوفد وإن لم يحقق ما كان يصبوا إليه، إلاَّ أنه لم يكن في الظاهر ممتعضا لما كان قد وجده من حسن استقبال وإصغاء[8].

اذ يمكننا اعتبار ذلك عاملا مهما في تهدئة الأجواء وإعطاء نوع من الأمان لأجل الدعوة بعدم التعرض اليهم. ما يفيد بأن منحهم هامشا مهما من الحركة والنشاط لنشر مبادئهم وأفكارهم.

امام هذا الواقع فان الظاهر انه سيشكِّل من دون شك جانبا مهما لأهل الدعوة سواء لالتقاط الأنفاس أو ما يحمله من إيجابية استمرار نَفَس الدعوة وتجدُّدِه. وحاضره أيضا في نفس الوقت من فرصة أكثر من سانحة لإعادة التنظيم وترتيب البيت الداخلي وما يمليه ذلك من ضرورة تحديد مسارات وآليات العمل والوسائل الكفيلة لبلوغ الهدف المنشود.

وفي هذا السياق طفى إلى السطح، أحد أهم معالم الاستراتيجية الجديدة من خلال ظهور التركيز على عمل المجالس العلمية بتنظيمها وتطوير عملها الذي كان يجري في إطار السرية المطلقة.

ويلحظ في هذا الجانب ما أحدثه بكل امتياز الإمام أبا عبيدة. إذ أشار خليفات إلى أنه " وعلى الرغم من وجود هذه المجالس السرية منذ الأيام الأولى لقيام حركة القعدة، فإن الفضل يعود للإمام أبي عبيدة، في توضيح معالم هذه المجالس وتصنيف وظائفها وترتيب طبقاتها"[9].

وإن كانت الإضافات غير محددة، لكن المرجح أن مجرد الإشارة إليها، تفيد أنها من الأهمية بمكان. وأنا أرى أنه كان من الضروري والطبيعي أن يكون ذلك.

وهو حسب ما أراه، لم يكن لا غفلة ولا قصورا من قبل الإمام جابر. لكن الراجح، أن الظروف هي التي تكون قد فرضت منطقها على كلا الإمامين.

وأيا كان الحال، فإن هاته المجالس في الغالب الأعم كانت تعقد في السراديب التي هي حفر ومغارات في الكدى والآكام. وكأني بأهل الدعوة قد حذوا في ذلك منحى الرسول عليه الصلاة والسلام، حين اتخاذه غار حراء منطلقا للتأسيس للرسالة وبداية أمر الدعوة. وتأسيسا أيضا لما قد نسمِّيه مذهب الاحتياط لأجل ضمان أكبر قدر من السلامة والأمان خاصة لمن يُعوَّل عليهم في الوصول بالفكرة إلى منتهاها. وهو أمر في غاية الضرورة والأهمية خاصة في ظل ما كان يتربص بالحركة بشكل عام من قبل السلطات السياسية المتعاقبة حينها.

ولعل أبرز ما يلاحظ على مستوى هاته المجالس، هو ما قد اعتمد في التمييز بينها من حيث المستوى، وطبيعة التكوين والأهداف.

اذ يبدو جليا أن أبا عبيدة كان قادرا على أن يحدد لكل فئة من المنتسبين للمذهب مجلسهم المتوافق مع مستواهم الذي هم عليه، وعلى أساس ما كان متأمَّلا منهم تحدد طبيعة التكوين. وكل ذلك يتم تحت اشراف الإمام وتوجيهه ومن تكل اليهم مهام التكوين من المشايخ والأعلام.

وبالنظر إلى ما كانت تمثِّله هاته المجالس من أهمية، وما كان متأمَّلا من خلالها للوصول اليه. فقد يمكن اعتبارها أهم أساسات المنهج الدعوي الذي يكون الامام أبا عبيدة قد ركَّز جهوده عليه وحباه بوافر العناية التي لا شك أنها تطلبت منه اعتماد دقة التنظيم والسرية المتناهية لحماية الأفراد المعتمد عليهم ضمن هذا المنهج للوصول بهم للهدف المنشود. ولا شك أيضا أن الامام أبا عبيدة يكون قد نظر إلى الموقف الرسمي بجانب من اليقظة التي جعلته يستفيد من المدرسة الجابرية بكل مقوماتها، ويحرص في الوقت ذاته على استثمار ما أتيح له من الظروف التي سبقت الإشارة اليها لإنجاز قفزة نوعية على مستوى مساره الدعوي.

وقد توزَّعت المجالس التعليمية التي كانت تقوم أساسا على الموائد العلمية بدسامتها المعرفية بين مجالس الشيوخ التي يبدو أنها ومن خلال مُسمَّاها أنها قائمة على الخصوصية للفئة التي هي محل التوجيه والإرشاد ورسم أساسيات وتحديد المسارات، حيث تضم وفقا لذلك الرموز والأعلام، وهي تحت اشراف كبار المشايخ والأيِّمَّة. وأرى انها ومن خلال طبيعة تكوينها قد مثَّلت هيئة استشارية ولو لمرحلة تاريخية قد تكون مُعِينةً للإمام في تقديم الرأي والمشورة.

إلى جانب مجالس العامة التي لا شك أنها كانت مفتوحة أمام عامة أهل الدعوة للاستزادة من المعرفة بأصول المذهب ومبادئه، والتي كان يتصدر رأسها المشايخ الأفذاذ اللذين أوتوا نصيبا من العلم.

والأهم إلى جانب المجلِسَيْن سابقي الذكر هو تلك المجالس التي كانت على جانب متميز من الخصوصية في كل شيء ان على مستوى طبيعة التركيبة او نوعية ومستوى التكوين أو حتى ما هو مرجو من وراءها.

ونقصد بذلك مجالس أعداد الدعاة التي هي على صلة مباشرة بالإشكالية محل المعالجة، وسنُفرد لها الكلام فيما سيأتي ذكره لاحقا.

وما أخاله في هاته المجالس اجمالا انها كانت في عمومها تكون قد شكلت فرصة الالتقاء للوافدين عليها والمنتسبين اليها من مختلف البقاع والأصقاع، وما يوفره ذلك من تعارف وتواصل بين أبناء المذهب. وقد شكَّل وصول الأفكار الاباضية والصفرية لبلاد المغرب نقطة تحول في تحديد الموقف المغاربي الذي أشار العروي إلى تحرُّرِه من التبعية وأخذه زمام المبادرة التاريخية[10]. ما يعني أنه صار في محل الفاعل لا مجرد المتأثِّر بالأحداث. وهذا ما يحسب للأفكار الجديدة الوافدة، والتي سينظر لها من نافذة التواصل والتفاعل الحضاري. وكما أكَّد الرقيق القيرواني أن وجود الأفكار هذه كان حتى قبل ثورة 122هـ / 739م، إذ أشار في معرض كلامه إلى أنه قد "ولي المغرب يومئذ قوم فيهم دعوة الخوارج ومنهم عدد كثير وشوكة"[11].

يرتبط الوجود الإباضي ببلاد المغرب بما بذله سلمة بن سعد الحضرمي من جهود سجلتها المصادر التاريخية وأكدت تفانيه في ذلك، وبالنسبة لي أرى أن هذا الأخير قد صورة الرجل المناسب في المكان المناسب وترجم الفعل المناسب.

اذ أرى فيه من خلال ما أسَّسَ له امتلاكه الكفاءة والمهارة العالية جدا. وهو ما سهَّل له سرعة النفوذ في الوسط الاجتماعي المغاربي والقدرة على كسبه ثقته التامة لما وجده فيه من صدق وما كان بين جنباته من ايمان حقيقي وعميق بالفكرة والمبدأ.

اذ لا بد أ ن يكون من هو في مثل وضعه أن يكون على قدر من المعرفة شبه المحيطة بطبيعة المغاربة وأحوالهم وطبيعة أفكارهم ومدى استجابتهم، وما يحتاج اليه فوق ذلك من بلاغة في اللسان وقوة في الحجج والبيان ليكون أقدر على اقناع المغاربة بسلامة المبدأ الذي يفترض فيه أن يكون هو في حد ذاته يحمل في ثناياه مقومات الاستجابة له والقبول به.

ثم انه بعد قول هاته العلاقة القامة على الثقة المكتسبة والمتبادلة تأتي أهمية الحكمة في الوصول إلى العناصر المعنية بالاستقطاب والتي من المفترض أن يعول عليها بالبلوغ بالفكرة على شاطئ الأمان. ولا شك في أن العناصر المعنية بالاصطفاء والاستقطاب لا بد ان تراعى فيها المؤهلات الشخصية لتحقيق ما هو مُتأمَّل منها.

اذ يفترض النظر اليها أولا من حيث مكانتها الاجتماعية وموقعها في ذلك وما تحظى به مكاسب الى جانب ما تحتاج اليه من الكفاءة والقدرة العقلية الواسعة لضمان استيعاب المعرفة الجديدة والتوجيهات العديدة لتكون الأقدر على ترجمة

الاستجابة لواقع حي بين الناس الذين يسيرون بينهم بقدر من المرونة والسلامة والسلاسة لاستثمار هذا التواصل في انجاز المشروع المستهدف.

ومن الملاحظ ان سلمة بن سعد حينما قرر أصالة عن نفسه أو نيابة عن من كان حوله او وراءه أن يرسل هاته الوفادة العلمية فهو انما أراد أن يؤسس الاستراتيجية بعيدة المدى وكان معها قادرا على استشراف الافاق في ظل توتم مرحلة الانتقال بالفكرة من التجريد ومن مرحلة الدعوة الى تجسيد العملي الواقعي وهذا ما كان يتطلب إيجاد القيادات القادرة على إنجاح هذه الفكرة، وهو ما لم يكن ليتحقق على ما يبدو من دون أن تكون هناك قاعدة تجسِّد حقيقة البناء المعرفي التي تُؤهِّل للوصول لمستوى ما هو ما مؤهل لذلك كان على ما يبدو وعلى ضوء ما كان معقودا في هاته المجموعة، كان الحرص الشديد لأن تتلقى تكوينًا خاصًا ومتميِّزا وحتى مكثَّفا أيضا لأجل أن تُصقل المواهب وتوسَّع المدارك وترتسم الآفاق بصورة أكثر وضوحا.

الاختيار المتميز: بالنظر إلى طبيعة التركيبة المشكلة للوفادة العلمية المغاربية المتَّجهة إلى المشرق يبدو جليا وجود حالة من التوافق بين كل من سلمة بن سعد و أبا عبيدة.

حيث أنه وحسب خليفات " فان الروايات الاباضية تشير أن أبا عبيدة كان يحبذ اختيار الدعاة من السكان المحليين"[12] وهذا ما نجده واضحا جليا في الاختيار المتميز والسليم والناجح القائم على الانتقاء المتفرد.

فالمجموعة عند انطلاقها من بلاد المغرب كانت تضم كلا من:

– أبو المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي

– عاصم السدراتي

– عبد الرحمن بن رستم

– أبو داود القبلي النفزاوي

فهذه التشكيلة يتضح أن جميع أفرادها هم من أهل البلاد المحليين بما فيهم عبد الرحمن بن رستم الذي صار مغربيا بالانتساب بعد انتقاله وأمه اليها.

الملاحظ أيضا هو التنوع القبلي والجغرافي الذي يترجم أن سلمة بن سعد لم يكن في اختياره عشوائيا، بل ينم عن معرفة فائقة وحنكة باهرة وآفاق واسعة.

فعاصم منتسب لقبيلة سدراته المتوزعة بين طرابلس ومنطقة الأوراس وتمتد حتى إلى عمق الصحراء. وهذا أبو داود من قبيلة نفزاوة ومن منطقة قبلّي جنوبي افريقية، إلى جانب بن رستم الذي كان على ما يبدوا مستقرا بالقيروان، كما كان أبو المنيب من منطقة غدامس في عمق الصحراء المغاربية[13] الواضح ان سلمة بن سعد كان قد استهدف العنصر البربري بالدرجة الأولى والمباشرة، ربما لما كان له من مواقف تجاه السلطة القائمة، وهو اختيار ناجح سيشكل أحد عوامل النجاح أيضا لما يعرف عند البربري من يبس وتشبث بما يؤمن به وشدة تمسك.

واضح حرص سلمة بن سعد على أن يصل المذهب الاباضي إلى معظم أنحاء بلاد المغرب وأن تقتنع به جل القبائل البربرية ليكون له من العدد والشوكة وما يحمي به وجوده. وقد انخرط العنصر العربي مع عودة الوفد ليشكل بذلك إضافة متميزة قد يكون الهدف من ورائها ربما استمالة العنصر العربي خاصة وأن الوجود المعافري تحديدا كان سابقا لمجيء أبي الخطاب كما نجده في رواية للقيرواني[14] وكأني بهذا المنهج أنه كان قائما على محاولة تحقيق أكبر قدر من التوافق وجمع الشمل.

كيف لا والمذهب الاباضي في جوهره مؤسس على التسامح والاعتدال، ولعل ما تشكل من أحداث مع قيام دولة أبي الخطاب 140هـ/757م يترجم لنا جانبا مهما من ذلك.

إن سرعة إعلان هذه الإمامة من شأنه ان يعطي لنا إشارة واضحة عن مدى ما حظي به حملة العلم العائدين من البصرة من اجلال وتقدير وترجمته السرعة الباهرة التي التفت من خلالها القبائل المغاربية حولهم وزيادة اقتناعها بالمذهب وانخراطها فيه بصورة أكبر. وبذلك أصبحت الاباضية تحظى بالمزيد من القبول ولاطمئنان لها خاصة أمام الاضطراب الذي أحدثه ما أقدم عيه عبد الرحمن بن حبيب بتعيين أخاه الياس واليا على طرابلس[15] ، والأهم من ذلك ماكانت قد أقدمت عليه قبيلة ورفجومة الصفرية والذي فرض على أبي الخطاب التدخل لنصرة الحق وأهل القيروان الذين تحرروا بذلك من عاصم بن جميل وديانته[16]

وقد حظي موقف أبا الخطاب بمباركة وتأييد أهل السنة له وسيرهم في ركابه[17] لقد أصبح ينظر للاباضية على أنها القوة التي لا يمكن الالتجاء اليها والاعتماد عليها، بفضل ما استفادته خاصة في ظل العودة القوية لحملة العلم وما احدثوه من تغيير سريع ظهر على أرض الواقع.

طبيعة التكوين واستمرار التواصل:

مابين نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجريين، شكلت البصرة مركز الإشعاع الحضاري لاتساع انتشار المعرفة المتنوعة بها، وكان لأبي عبيدة الدور الأبرز في النهوض بالحركة العلمية والاهتمام بتوسيع انتشار الاباضية وفق أسس ومناهج سليمة.

ومن هذا المنطلق كان وصول البعثة العلمية الأولى من حملة العلم المغاربة لينهلوا من منبع المعرفة الصافي والمتمثل في شخص الإمام أبي عبيدة الذي اشتهر من بين ما أشتهر به روايته الأحاديث النبوية عن شيخه الامام جابر، وبذلك " فإن أحاديثه ثلاثية السند، تعد من أصح الأحاديث لقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي مبثوثة في كتاب الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري"[18] ليس ثمة شك في أن الهدف الأول لوصول هاته الوفادة العلمية هو تلقي المعرفة وفق أصول المذهب وزيادة التجربة في ذلك ليكونوا بمثابة المرجعية العلمية ومصدر بيان أصول المذهب والعاملين على نشره ببلاد المغرب، لكن ما لا يكن اغفاله هو أنه إلى جانب المعرفة القاعدية بأصول المذهب وتعاليمه ومبادئه أعتقد أنه كان هناك نظر في الأصول السياسية. نجد أمامنا نص في غاية الأهمية يورده الدرجيني في طبقاته، وهو عبارة عن محاورة واضح أنها ختام لحديث ثم تداوله بصورة مستفيضة يعرض فيها حملة العلم وجهة نظرهم على إمامهم، " فقالو....." (الدرجيني، الطبقات، ج1، ص)

واضح من خلال هذا النص وجود نظرة استشرافية لمرحلة ما بعد التكوين والعودة الى ديار المغرب، وهو ما يؤشر حقيقة إلى أن فترة التكوين قد تم خلالها على الأرجح التطرق لمسألة الإمامة وما يتصل بها من شؤون الحكم والإدارة، ومن ثم فإننا يمكن أن ننظر إلى حملة العلم من زاوية ثانية أنهم كانوا بمثابة " القادة الذين أعدوا في الشرق"[19] فكان مدهم بالعلم الشامل والمتعدد الجوانب مندرج في إطار التهيئة لمرحلة جديدة كان الاباضية يطمحون للوصول إليها بصورة مشروعة.

استمرارية التواصل وثماره:

مع عودتهم لبلاد المغرب التي كان ينظر اليها بعين المباركة والاستبشار، أصبح حملة العلم "يمثلون طلائع الرابطة الجديدة التي غدت تربط ببين المغرب العربي والمشرق العربي، ورمزا للتجارب بين التيارات الفكرية السائدة بينهما"[20] ، هذا دون شك تعبيرا عن مدى ما زاد من روابط فكرية ومذهبية بين جناحي العالم الإسلامي. وستشكل قاعدة لتحولات سياسية عميقة سيكون لها كبير الفضل في إقامة المذهب وإعلان إمامته الكبرى التي صارت تمثل أمل أهل المشرق قبل المغرب لما تحقق معها من طموحات كان السعي اليها واضحا خاصة في ظل الإخفاقات التي رافقت المحاولات السابقة سواء في إمامة حضرموت واليمن التي سرعان ما قضي عليها الامويون، أو إمامة عمان الأولى التي انتهت بأدي عباسية 134، العلاقة بين حملة العلم وإمامه لا تبدو أنها كانت قد انتهت بمجرد العودة للمغرب، وانما يبدو أنه سيكون مقدرا لها أن تستمر في ظل التوصية التي لا شك أن الإمام أبا عبيدة قد قدمها لتلاميذه وهو يحرص على أن يرى منهم ما يسر خاطره، لذلك فقد دعاهم " بالرجوع اليه في كل ما أشكل عليه من أصول المذهب"[21]. وبهذا يكون حملة العلم قد أسسوا لمسار جديد من العلاقات المذهبية المعلنة والقضايا الجانبية التي ربما أنها كانت من دون إعلان، وهو ما سيستمر مع الأيمة الاباضية لبلاد المغرب حتى زمن الدولة الرستمية. في ظل هذا التواصل كان استمرار حضور المعرفة المشرقية سواء في الاعتناء في الفتيا أو الأخذ بالاسانيد الصحيحة من الأحاديث النبوية فهذا أبو صالح أفتى في امراة أنكرت بعد تزويج وليها ثم رضيت بعد ذلك بأن " ذلك جائز ترجع الى الرضا بعد

الانكار ولا ترجع الانكار بعد الرضاء وهو قول أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة رضي الله عنه"[22]

كما نجد أن المقابلة حاضرة لتقريب المصطلحات الشائعة في مجال الفتيا بين أهل المغرب وعمان، اذ أشير الى مقدار ما يخرجه من أكل بغير عمد بعيد الصبح لضنه أنه ليل " ينفق كرا من طعام ويصوم يوما، والكر عند أهل الجبل مثل مد النبي صلى الله عليه وسلم وهو المن عند أهل عمان وأصحابنا"[23]فواضح أنه المراد من التقريب المعنى بهاته المقابلة البسيطة أن هو تأكيد على الحضور الحضاري المتبادل.

وهذا أحد أعلام عمان قاضي صحار بن محبوب كان له ما عرف به من سيرته لأهل المغرب[24]، ومن باب التأكيد على استمرارية هذا التواصل الحضاري أن وجدت لأثار المشرقية حتى في عمق الصحراء المغاربية، وكانت تحظى بالعناية والاجلال لأصحابها لما كانوا يحتلونه من مكانة في قلوب أهل العلم، ففي رواية لأبي محمد عبد الله بن بكر " كنا في آجلو فكان عزابي يقرأ آثار الربيع عن ضمام عن أبي الشعثاء جابر بن زيد رواية أبي صفرة عبد الملك بن سفرة رحمه الله، فكنت أفسر ولا أذكر غير المسألة، وأدع ذكر الشيوخ، وكان أبو زكرياء في ناحية المسجد يصلي، وقال لي: ألا تذكر أصحابك، فرجت الى ذكرهم كما ذكرهم في الكتاب"[25]

ان مبدأ التواصل الحضاري يمكننا أن نرسم معلم مبدئه مع وصول سلمة بن سعد الذي نجح في إرساء دعائم البناء الحضاري الذي تدعم بشكل واضح وظهرت نتائجه بأكثر تجلي مع عودة حملة العلم الى بلاد المغرب التي ستشهد واقعا متميزا في العديد من الجوانب نركز في هذا المقال على ذكر الأبرز منها حضاريا،

والتي تترجم لنا جانبا من التواصل الحضاري بين طرفي العالم الإسلامي. ولعل من بين تلك الثمار التي نتلمسها مع عودة حملة العلم واستقرارهم في طرابلس بما كانت تمثله من قيمة معنوية لدى اباضية المغرب الى جانب ما كانت تمثله أيضا من رمزية للسخط على العباسيين، وتبعا لذلك جاء في ظل ما أشرنا اليه من سرعة الالتفاف حولهم والاطمئنان لاعلان الإمامة تأسيا بما كان، حيث اجتمع الاباضية سرا في موضع غربي طرابلس يعرف باسم صياد، وفيه انتهى قرارهم بتأكيد تولية أبي الخطاب اماما عليهم[26]، ومن الواضح أن مثل هذا اللقاء كان من دون شك فرصة لتوسيع المشاورات البينية وإدارة الرأي والاستئناس بما أشار اليه أبو عبيدة الى جانب ما يكونوا قد رواه فيما امتاز به أبا الخطاب الذي نجح في الاستمرار والاستقرار في امامته نحو اربع من السنين، وكان بالقدور إطالة الأمد لو لا المكر والخديعة الى جانب أولية الأقدار. الا أن ظهور عبد الرحمن بن رستم وإعلان امامته 160هـ/777م يكون قد أعطى املا جديدا ليس فقط للاباضية المغرب ولكن أيضا حتى لاباضية المشرق، فقد كانت امامته فريدة من نوعها متميزة في كل شيء ومدة استمرارها غاية العام 296هـ/909م، ان عبد الرحمن بن رستم قد استطاع ان يؤسس بجهوده تلك لفكر سياسي مغاربي ملموس، استطاع أن يجسد القدرة على نقل النظريات والأفكار الى واقع ملموس وأكد مع ذلك أن التجربة الرستمية كانت بحق رائدة لما كان يمثله في شخصه باعتباره احد حملة العلم، وأن مركزها تيهرت كانت من أهم المدن المغربية التي وصلها بها الحد لأن توصف بحق بعراق المغرب، ليس فقط بما حوته من مواصفات ومكانات اقتصادية، ولكن لما كان لها من حضوري حضاري متميز ليس أقل معالمه تلك المكتبة المعصومة التي

مثلت فخر الاهتمام الرستمي بالمعرفة لما حوته من أمهات المؤلفات والنفائس التي ما فتئ الائمة الاعلام يسهرون على توفيرها من الشرق خاصة عهد الامام عبد الوهاب، الى جانب ما اشتهرت به من المناظرات والمساجلات والمقارعات، وما كان قد اشتهر البيت الرستمي من اهتمام بالمعرفة وأصولها[27]

لقد صارت تيهرت أحد ابرز مراكز الإنتاج المعرفي ببلاد المغرب والنبوغ الحضاري الذي امتد منها ليشمل عمق الحواضر الصحراوية التي شكلت بدورها مراكز معرفية متميزة وكان لها ما ميزها من الاسهام الحضاري، كما هو الشأن لوارجلان وسدراته اللتين نافستا تيهرت في انتاج المعرفة والتعاطي معها ويمكن إضافة لذلك أن نحدد جملة من النقاط أبرزها:

- اسمترار ازدهار المذاهب الإسلامية والحركات السياسية التي كان لها حضورها الحضاري خاصة الاباضية التي صارت تمثل جزءا من الهوية المغاربية، وليس ادل على ذلك من استمرار المذهب الى يوم الناس هذا في عدد من البلاد المغاربيية.
- استمرار الارتباط بالمشرق والتواصل معه في اطار توثيق العلاقات الفكرية قائمة بين الطرفين، وهو ما زاد من تنامي انتاج المعرفة وانتقالها بين البلدين.
- توسيع انتشار المذهب الاباضي الذي شهد امتداد نحو كل من افريقيا الإسلامية وبلاد الاندلس مؤكدا بذلك حضوره الى جانب بقية المذاهب
- اثراء الفكر الإسلامي بعديد التآليف والكتابات المذهبية التي شكلت إضافة نوعية بتحريرها العقل وتنويره بضياء المعرفة التي تأكد معها حقيقة أن الإسلام، بعيد عن حالة الجمود والركود. لقد كان حملة العلم بقبولهم ان يكونوا

ضمن العناصر المشكلة لهاته الوفادة قد استطاعوا ان يؤسسوا فعلا لواقع جديد من العلاقات القائمة في ظل التواصل الحضاري بين طرفي العالم الإسلامي الذي صار يبدو كاملا متكاملا بما استطاع ان يحققه من تفاعل إيجابي اكد حركية الفكر الإسلامي وقدرته على التواصل والاسهام في استمرار الاثراء والانماء.

ان مما لا شك فيه هو أن حملة العلم ومن خلال ما تم تناوله لم تكن مجرد وفادة علميه غيرها من الوفادات التي اعتادها الناس، وانما كانت متصلة في جوهرها بواقع ما كان متأملا فيها ومنتظرا منها، وهو ما تم بصورة فعلية على أرض الواقع في صورة علمية أكدت مدى القدرة على الانتقال السليم بالافكار من عالم التجريد الى التطبيق الميداني.

الهوامش:

[1] يرى البعض أن ليس للإباضية أي ارتباط بالخوارج كأمر قائم على الخروج والتطرف في المواقف بالنظر لما كان قد عرف عنهم من اعتدال في المواقف والآراء بشكل عام.

[2] يعتقد أن تعمد الاباضية إخفاء الإمام الحقيقي، انما كان حسب أحد الدارسين اتقاء لسطوة الجبابرة من ملوك بني أمية. عمر بن الحاج محمد صالح با (عمر با): دراسات في الفكر الاباضي (د ط، ت)، ص 30.

[3] وهو الامام الأول الذي كانت اليه نسبة المذهب من دون أن يعلن اسمه لما كان يقتضيه الوضع تجاه نظام الحكم القائم حينها. وهوما حال دون امكانية نسبتها الجابرية . عمر بن الحاج محمد صالح با (عمر با)، المرجع السابق، ص 26. حجازي عثمان: تطور الفكر الاباضي في شمال إفريقيا، المكتبة العصرية، لبنان، ط 1، 2000، ص- ص16- 20 . الدرجيني أبو العباس أحمد: كتاب طبقات مشائخ المغرب، تح إبراهيم طلاي، مطبعة البعث(قسنطينة)، الجزائر، (د،ط)، 1985، ج 2، ص

12. عوض محمد خليفات: الأصول التاريخية للفرقة الاباضية ، الجامعة الأردنية، الأردن، (د،ط،ت)، ص 07.

[4] يعد منظّر لمسارات الفكر الإباضي. محمد صالح ناصر: منهج الدعوة عند الاباضية، جمعية التراث (غرداية)، الجزائر، ط 2، 1999، ص 25.

[5] خليفات، المرجع السابق، ص10

[6] نفسه، ص11

[7] نفسه، ص 11

8 نفسه، ص33.

[9] نفسه، ص36.

[10] العروي عبد الله،مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، المغرب الأقصى، ط2، 2000، ص35.

[11] الرقيق /67 التحقيق رقم 74/2.

[12] خليفات، المرجع السابق، ص41.

[13] ينظر ابن خلدون عبد الرحمان، تاريخ بن خلدون، دار الكتب العلمية، لبنان،ط1،(د،ت) ، ج6، ص 107.

[14]الرقيق القيرواني، زينهم84/ نسخة109/2.

[15] الحريري ص64، دبوز ج2 ص56.

[16] عنها ينظر : البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، المسالك والممالك، تح جمال طلبه، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2003.، ص70-71. ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي لبنان،ط5، 1985.ج4، ص503، الثعالبي 153-154

[17] ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، لبنان، (د،ط)، 1980.لبيان المغرب ج1، 70-71. الرقيق، زينهم 81 نسخة2 ص104. الثعالبي عبد العزيز: محاضرات في تاريخ المذاهب الأديان، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1985، ص 168. ابن ،ج4، ص503

[18] الوسياني، المصدر السابق، ج1،ص45.

[19] محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص45

[20]الحريري، ص82

[21] الفقي ص149

[22]الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص242

[23] الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص268،

[24] نفسه، ج1، ص240

[25] نفسه، ج1، ص – ص 321-322

[26] الشماخي أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، كتاب السير، تح أحمد بن سعود الوسياني، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط2، 1992ج2، ص101، الحريري، المرجع السابق، ص67.

[27] ينظر: ابن الصغير المالكي، تاريخ ابن الصغير، دار الغرب الإسلامي، لبنان، (د،ط)،1987